نور الدين العلوي | نشر في ٢ يوليو ٢٠٢٠,

فرنسا ماحقة أحلام الشعوب

عندما كنا في فورة الشباب نختصم في سياسات بورقيبة تجاه فرنسا ونحتج على اتفاقيات الاستقلال المنقوصة ونتهمه بالعمالة والخيانة وبيع البلد للمحتل، كان أهلنا الذين شاركوا في حرب الاستقلال بما تيسر لهم من وسائل يهدئون من ثورتنا ويقولون بحكمة العجائز (مد ساقيك على قدر لحافك) ويقولون (العين لا تعارض المخرز)، وكنا نثور عليهم وننعش أملنا باستقلال تام وشامل، ولما جاءت ثورة 2010 انتعش أملنا وكبرت أحلامنا مرة ثانية ورأينا أنفسنا نستقل فعلًا، فالشعب يريد.

بعد عشر سنوات من الثورة أعادتنا فرنسا إلى تاريخ قديم، تاريخ إمضاء اتفاقيات الاحتلال لنناقش كأننا في سنة 1881 ويبرر بعضنا لتلك الاتفاقيات المذلة التي سرقت أرواح أهلنا وحياتهم وأرضهم وثرواتهم منذ قرن ونصف.

نكتب الآن بمرارة عن دور فرنسا في تكييف حياتنا تحت الحد الأدنى من الحياة، لكن بواسطة نخب من عندنا وصلت بها الدناءة أن دعت فرنسا لحمايتنا من الديمقراطية، وآخر الداعين إلى ذلك رئيس منحناه ثقتنا، فإذا هو يستكثر علينا أن نسير برفض فرنسا في المنابر، فلم نجرؤ بعد على أن نسير بذلك في الشوارع.

فرنسا تسللت إلى ثورتنا منذ اليوم الأول

لفورة الشارع حكمته، إذ يحرف البصيرة عما يجري في الكواليس، لقد رأينا وزيرة خارجية فرنسا تعرض المساعدات القمعية على بن علي وهو يرتجف ثم يولي مدبرًا، فركزنا هناك ولم ننتبه إلى النخبة الفرنسية الولاء التي تسللت إلى الثورة منذ اليوم الأول لتفرض وجهة سياسة غير وجهة الشارع الباحث عن استقلال تام، تلك النخبة وفيها كثيرًا من لابسي جبة الحقوق قادت فصول الثورة وفرضت الخروج

من سياق ثوري إلى سياق قانوني تحسن إدارته ضد الشارع الهائج وتحول اهتمام الجياع الأميين سياسيًا إلى ثورة مطالب، فغرقت الثورة في المطلبية وأمكن للقادة الذين برزوا فجأة أن يفرضوا قوانينهم وطريقة اللعب في ميدانهم، فإذا نحن في الفخ نتوسل الحد الأدنى ونتغاضى عن مطالب الثورة.

كانت الثورة تعيد إرسال رسائل التغيير كل مرة وكانت رسالة انتخابات أكتوبر 2011 شديدة الوضوح، الشعب يريد التغيير الجذري وفي مقدمته الاستقلال والسيادة، فإذا النخب نفسها وقد سقطت في الانتخابات تستعين بالاغتيالات السياسية المحترفة وتنال جائزة نوبل الفرنسية لتقود الموجة الثانية من تحويل الثورة إلى مطلب نقابي غريزي، وإذا الانتخابات تسقط وإذا فرنسا تقود بواسطة حزبها في تونس وتمكن له من رقابنا بانتخابات كنا نصر على شفافيتها ولا نريد أن نرى لعبة النفوذ الدولي/ الفرنسي تحديدًا، توجهها لذلك خسر مرشح الثورة (الدكتور مرزوقي) وانتصر مرشح فرنسا (الباجي قائد السبسي)، وتعزينا بأن طول النفس الثوري سيأتي على منظومة فرنسا المالية والسياسية ولو بعد حين.

الاحتلال الثقافي هو قوة فرنسا القاهرة ولذلك وجدت دومًا نخبًا محلية اصطنعتها بإغراءات قليلة

نحن الآن من جديد في مواجهة فرنسا المحتلة الغاصبة ونخبتها بشكل صريح مباشر لا يمكن لأي حذلقة لغوية أن تخفيه أو تموهه أو تبرره، فقد تسللت فرنسا إلى الثورة ووجهتها وحكمت من خلال حزبها الذي لا يمكن وصفه إلا بأنه جماعات متناقضة في الكثير ولكنها متفقة في رفض التغيير وتعيش من فتات المائدة الفرنسية المحتلة وتتقبل إملاءاتها وتحني لها الجباه وتقول بغير النية التي برر بها أهلنا لبورقيبة ذات يوم وهم جياع فرنسا ولا الخوانجية.

لقد حددت فرنسا عدوها التونسي (العربي) وأملت على أنصارها حربه ومولت وجودهم وأسندت فعلهم بالجوائز ونحن الآن لا نواجه فرنسا مباشرة بل نواجه هذا الحزب (اللاحزب)، فكل كلمة ضد فرنسا تجلب علينا النعت القاتل خوانجية، فإن لم يكن المرء مع فرنسا يقدم لها فروض الطاعة والولاء فهو خوانجي (مع سلسلة أخرى من النعوت لا نملك لها ردًا).

فرنسا والإخوان

قد لا يكون الخوانجية (وممثلهم في تونس حزب النهضة) ضد فرنسا بل ربما يسعون إلى مرضاتها مثلهم مثل من سبقهم، لكن فرنسا ضد الخوانجية ولو خرجوا من جلودهم لما قبلت بهم، فمبتدأ الفعل عند فرنسا وليس عند الإسلاميين، فهي من تحدد عدوها ومن يوجه القوات ضده، أما السبب فواضح وبسيط وقد تكلم فيه كل عالم بتاريخ الفكر وبتاريخ الاحتلال والقهر منذ قرنين.

فرنسا ثقافة قامعة ماحقة مدمرة محتلة تتقدم اقتصاديًا في مجالات الآخرين الثقافية لكن بعد أن تقوم بمحوه ثقافيًا، لذلك وجدناها تفرض لغتها على كل لغة محلية مهما كان تاريخها الثقافي، تستوي عندها لغة قبيلة إفريقية محدودة ومعزولة وشفوية لم ترتق إلى مرحلة الكتابة أو لغة عربية أزلية كتبت ونظم فيها الشعر منذ كانت شعوب فرنسا تأكل النيء وتسير حافية.

الاحتلال الثقافي هو قوة فرنسا القاهرة ولذلك وجدت دومًا نخبًا محلية اصطنعتها بإغراءات قليلة (زمن الاحتلال في تونس كان يكفي أن يسمح لك بالجلوس في مقهى خاص بالمحتلين ليصيبك الشعور بأنك صرت فرنسيًا، فقد كان يعلق على أبواب المقاهي والحانات ممنوع على العرب والكلاب، وكان بعض الكلاب يدخلون فيظنون أنفسهم قد صاروا فرنسيين يرطنون بلهجة باريس).

لقد كان كل مدافع عن العربية لغة وثقافة عدوًا لفرنسا وهذا العداء الماحق انتقل إلى الإسلاميين عند ظهورهم كتيار سياسي هووي وسينتقل إلى كل من تكلم العربية وعمل على فرضها بديلًا والعربية تجر معها الإسلام ضرورة فهو باكيدج ثقافي وليست طقوسًا عبادية شخصية كصلاة كنيسة في شارع فرنسي مهجور.

لفرنسا أسطورتها الخاصة وهي أسطورة لا تتعايش بل تمحق غيرها من الأساطير المؤسسة للشعوب وللهويات ولذلك تصدم بالثقافة العربية الإسلامية وكل من يمثلها إسلاميًا كان أو عروبيًا أو يساريًا منطلقًا من هويته وغير معاد لها، وإذا نظرنا إلى حروبها في الشرق خاصة حيث توجد أساطير مكتملة سنجد أنها كانت دومًا حاضرة وفاعلة في مقدمة معارك الهوية في إيران مصدق (العلماني) وفي مصر ناصر (القومي) وفي فيتنام (الكنفشيوسي أو البوذي أو الشيوعي)، فإذا فرضت ثقافتها دخلت برأس مالها فاحتلت الجيوب بعد العقول، من هنا نفهم عداءها للإسلاميين الآن وإن حاول الإسلاميون التودد إليها لاجتناب أذى عملائها في الداخل.

نسف التاريخ لا يكون في خطاب لأن التاريخ روح أكبر من خطاب عابر يلقيه شخص عابر في تاريخ بلد ثابت لا يتزعزع

كاتب هذه الورقة لا يرى الإسلاميين يبحثون عن موقع في قائمة العملاء ولكنه يراهم يكتشفون وهم يشاركون لأول مرة في السلطة أن من يخرب عليهم يخرب بأمر فرنسي أوّلا ويستقوي عليهم بفرنسا وهم ينتهجون منهج تأجيل المعارك وترتيب أولويات إنقاذ أنفسهم قبل فرض أفكارهم.

ومن قبيل التذكير نشير إلى وفد من نواب المجلس التأسيسي من رافضي حكم الترويكا ذهبوا ذات صيف إلى البرلمان الأوروبي يستجدون مساعدة سياسية مباشرة أن يسقط الأوروبيون المجلس التونسي المنتخب، فتم طردهم في ذلك البرلمان وقيل لهم المنتخب لا يسقط إلا بانتخاب.

ومن قبيل التذكير أيضًا نشير إلى المناضلة الحقوقية الفذة سهير بالحسن التي جلست إلى وزير خارجية فرنسي سابق في بلاتو تليفزيوني مباشر تطلب منه تدخل فرنسا لحماية الديمقراطية في تونس من الخوانجية، مما اضطر الوزير إلى تذكيرها بأنها قادمة من بلد مستقل ذي سيادة وعضو في الأمم المتحدة وقام بثورة.

الطاعون

نستعير من درويش الذي كان يحدد عدوه في أرضه المحتلة، فنحن في تونس نحتاج تحديد هذا العدو بالاسم، ففرنسا طاعون الشعب التونسي احتلت أرضه وشردت شعبه وقتلت فيه آلافًا مؤلفة وسرقت معادنه وبنت بها بنيانها الشامخ (حديد برج إيفيل مجلوب كله من منجم حديد الجريصة الذي تركته فرنسا قاعًا صفصفًا)، ثم تدخلت في ثورة الاستقلال وحرفتها نحو استقلال منقوص بشروط مهينة لا تزال بنودها قيد الكتمان وصنعت فيها أجيالًا من نخب تدين لها بالولاء ولا تبني صورها للعالم إلا عبر الثقافة الفرنسية وعلى هامش جامعاتها المتراجعة أمام الجامعات الناطقة باللغة الإنجليزية.

هذه الحقيقة التاريخية الماثلة في أذهان أجيال ربتها الأجيال التي قاومت فعلًا ولم تفرح بالجلوس في مقهى فرنسي بدرجة كلاب، وهي تعشش في الأرواح ولن يضيرها أن يأتي سياسي بلا ماض ولا أفق ليلغي وقائع التاريخ في موقف ذليل يستجدي الحماية ليستكمل مدته.

نسف التاريخ لا يكون في خطاب لأن التاريخ روح أكبر من خطاب عابر يلقيه شخص عابر في تاريخ بلد ثابت لا يتزعزع، ففي التاريخ عبر كثيرة يعرف بعضها الذين جلسوا في مقاهي فرنسا يسعدون إذا كلمهم فرنسي برطانته وقال لهم على العرب إن لا يكونوا عربًا فالعرب ليسوا قومًا في التاريخ ومن سكن التاريخ قبل العرب وفجر فيه ستة عشر بحرًا من الشعر؟ نعم فالشعوب تعيش بالشعر قبل الشعير، وفي التاريخ لقاءات قادمة للحرية.